بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعوديه

كليـة الآداب
قسم التاريخ

كيفية دخول المذهب المالكي إلى الأندلس

إعداد الطالب

محمد إبراهيم العجلان

إشراف

د. عبد الغفور شاة الروزي

١٤١٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعوديه

كليــة الآداب

قسم التاريخ

كيفية دخول المذهب المالكي إلى الأندلس

إعداد الطالب

محمد إبراهيم العجلان

إشراف

د. عبد الغفور شاة الروزي

١٤١٢هـ

الإهداء

الى شجرتي الفل اللتين كانتا تظلنا بأوراقهما

وتحتضننا بأغصانها وتنعشنا بأريج عطرها

الى اللذين سهرا لننام ، وتعبا لنرتاح ،

وضحيا لننعم ونسعد

الى والدي العزيزين

شكر وتقدير

إلى أستاذي الفاضل د . عبد الغفور الروزي .

إلى من شجعني وحرص على أن يرشدني للطريق الصحيح وقدم لي خبرته .

إلى كل من ساعدني في اتمام هذه الرسالة مع الاعتراف بالفضل والجميل .

المقدمـــــة

إلى كل مسلم غيور على دينه .. أقدم بحثي هذا والذي سعدت به لأنه يتناول أحد الموضوعات عن الأندلس أرض البطولة ، ورغم تناوله لجانب واحد فقط - المذهب المالكي في الأندلس - إلا أن تعلقه بالأندلس قد أثار في نفسي الشجون ، وبعث في الحماسة نحو البحث والتقصي والمزيد من القراءة والمطالعة حول تلك الرقعة التي عمّر الإسلام فيها ثمانية قرون ، فنعمت بالخير من فضل تسامحه كافة الأجناس والأديان ؛ ونبتت كل العلوم برعايته ، وترعرع الفن الرفيع تحت وارف ظلاله ؛ فكانت حضارته شامخةً ، ومنارُه هادياً ، خلّف تراثاً نافعاً ، ندي الذكريات ، لنا منها عَبْرةٌ وعِبرة . لذا أقدم بحثي هذا متناولاً تواجد المذهب المالكي في الأندلس ومتمنياً أن تُبعث فينا روح أجدادنا الأوائل الذين غزوا بفكرهم المستنير - قبل سيفهم البطار - حضارات الأرض قاطبة ، أجدادنا الذين أخلصوا في الدعوة لوجه الله فكانت غزواتهم للقلوب قبل الحصون .

وقد استعرضت في بحثي هذا موضوعين أساسيين على خطين متوازيين الأول هو الأندلس في التاريخ الإسلامي وفيه حاولت جاهداً أن ألقي الضوء على الأندلس جغرافياً ومن الناحية السياسية والحضارية التي خلفها الفتح الإسلامي والذي حاولت أيضاً استعراض مسيرته وخطواته بإيجاز شديد . أما الموضوع الثاني فهو المذهب المالكي في الأندلس وقد بدأته بالحديث عن المذاهب الفقهية بصورة عامة ثم المذهب المالكي بصفة خاصة وبعد ذلك تحدثت عن مصادر هذا المذهب المالكي ثم عن دخول هذا المذهب إلى الأندلس ، وبعد ذلك تطرقت إلى فقهاء المذهب المالكي في الأندلس والذين انتشر على أيديهم هذا المذهب حتى انتصر على ماعداه من مذاهب أخرى ، وأخيراً اختتمت هذا البحث بعوامل انتشار هذا المذهب في الأندلس .

وأود أن أشير إلى المشكلة التي قابلتني في هذا الخصوص وهي مشكلة المراجع والمباحث ، ففي بعض الموضوعات كنت أواجه كثرة المراجع وتوفرها بصورة

كبيرة يصعب معها الاختيار وذلك مثل موضوع الأندلس في التاريخ الإسلامي وكذلك مصادر المذهب المالكي وأيضاً فقهاء المذهب المالكي في الأندلس والذي بذلت جهداً كبيراً في اختيار من أتناولهم بالتفصيل عمن أشير إليهم إشارات عابرة أو مختصرة وقد اعتمدت في ذلك على جهدي المتواضع وحسبي إن كنت قد أخفقت أن يحتسب لي جهدي وكثرة قراءاتي واطلاعي وتجربتي على تناول مثل هذا الموضوع رغم تواضع قدري بين جهابذة الباحثين من أساتذتي المحترمين .

وعلى الجانب الآخر ، فقد واجهت قلة المراجع وندرتها في موضوعات أخرى مثل كيفية دخول المذهب المالكي إلى الأندلس إلا أنني وبتوفيق من الله قد استطعت أن أركز على أهم ما جاء في المراجع المتوفرة أمامي وأن أذكرها باختصار وشمول في نفس الوقت .

على أنني قد اعتمدت بصورة أساسية على تسعة مصادر لهذا البحث ومن نتاجها كلها كتبته بأسلوبي الخاص أحياناً وباقتباس فقرات مطولة في أحيان أخرى . ونظراً لاشتراك كل هذه المصادر في كل موضوع من موضوعات البحث، فقد رأيت أن أشير إليها مجتمعة في نهاية البحث لأنني قد استعنت بالمصادر التسعة في كل موضوع .

الفصل الأول

الأندلس في التاريخ الإسلامي

الفصل الأول

« الأندلس في التاريخ الإسلامي »[١]

تاريخ الأندلس عريض واسع وسنتناوله في هذا البحث الموجز من ثلاثة نواحي : الناحية السياسية والحضارية وقبل ذلك نتناول قصة فتح الأندلس .

أولاً : مدلول كلمة « الأندلس » :

تدل كلمة « الأندلس » جغرافياً عن كل ما كان تحت حكم المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية . فلو تصورنا خطاً أفقياً من أقصى شمال البرتغال عند نهر دويره يسير مرتفعاً إلى الشمال ثم ينزل إلى الشرق حتى جنوب برشلونة على البحر المتوسط شمال مدينة طركونة شمال نهر إبره ، فما فوق هذا الخط يمثل إسبانيا الشمالية (المسيحية) وما يقع تحته ، حتى مضيق جبل طارق ، يمثل « الأندلس » أو إسبانيا الإسلامية . وليس الأندلس هو المنطقة الجنوبية من إسبانيا أو شبه الجزيرة الإيبيرية . وإن كلمة « أندلسيا » (أندلثيا) الأسبانية الحالية تشمل جنوب إسبانيا في التقسيم الإداري للدولة الإسبانية . ويخلط البعض بجعل الأندلس تشمل – في المفهوم التاريخي الإسلامي – جنوب إسبانيا فقط ؛ فاصطلاح « الأندلس » يشمل كل البرتغال الحالية تقريباً وأكثر أسبانيا .

ويعني الأندلس – حضارياً – ذلك التراث الضخم والتاريخ الشامخ الذي خلفه المسلمون خلال ثمانية قرون ، هي مدة بقاءهم في الأندلس ، وكان لهم خلال ذلك نشاط ملحوظ في بقية أنحاء أوروبا ، لا يتسع هذا البحث للحديث عنها .

ثانياً : قصة فتح الأندلس :[٢]

إن عبور الإسلام إلى الأندلس يمثل عصراً جديداً ، إذ يكون المسلمون قد دخلوا – بذلك أرضاً جديدة عليهم ، تختلف عما سبق أن فتحوه ، في شعبها ومناخها .

ولعل هذا الاختلاف كان أحد الأسباب التي أدت إلى أن يُغلب المسلمون في معركة بلاط الشهداء التي حدثت في فرنسا في مكان يعرف بـ « توربواتيه » ، جنوب باريس بحوالي سبعين كيلو متراً . وكان قائد المسلمين في هذه المعركة والي الأندلس البطل عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، وقائد جيش الفرنجة ، الذي تجمَّع من كافة مناطق الامبراطورية الفرنجية ، هو شارل مارتل ، وكان ذلك في شعبان - رمضان سنة ١١٤هـ الموافق أكتوبر سنة ٧٣٢م .

وقصة فتح الأندلس أو أسبانيا الإسلامية قصة شيقة ، بدأت مشاهدها في شهر رمضان ، بعد أن وافق الخليفة الأموي في دمشق ، الوليد بن عبد الملك ، على اقتراح موسى بن نُصير والي الشمال الأفريقي على فتح أسبانيا واختبارها بالسرايا أولاً .

عبر طريف بن مالك المضيق إلى أسبانيا ، بأربع سفن ساعد بها يليان حاكم سبتة من قبل الدولة القوطية في الأندلس . وكانت قوة طريف العسكرية - كحملة استطلاعية - تتكون من خمسمائة محارب منهم مئة فارس . وتم عبورها إلى الأندلس في رمضان سنة ٩١هـ / ٧١٠م واستقرت في المكان الذي حمل اسم قائد الحملة « جزيرة طريف » . وبعد جولات خفيفة ناجحة عاد طريف إلى موسى بالأخبار السارة المشجعة . وعلى أساس النجاح الذي لقيه طريف جهز موسى حملة « الفتح » التي قادها أحد ضباطه الذين عُرفوا بالبطولة المتواضعة والحنكة الذكية والعسكرية المتفانية ، كان ذلك هو طارق بن زياد الذي امتلأ إخلاصاً وحماسة لنشر الإسلام عب المضيق .

كانت مثل هذه الخطوة طبيعية بعد استقرار الإسلام في المغرب بشكل جعل أهله أنفسهم يتحمسون لحمل راية الدين الجديد ؛ فكانت فكرة فتح أسبانيا إسلامية تمثل موجة المد الإسلامي التي حملها الفاتحون حباً في نشر عقيدة الإسلام ومبادئه الإنسانية التي ما عُرفت ولن تُعرف مثلها شرفاً وشمولاً .

وفي السنة التالية ٩٢هـ / ٧١١م سار طارق بجيش قوامه سبعة آلاف جندي

عبروا المضيق ليعسكروا في الجبل الذي خلد (ومن قبله المضيف) اسم هذا القائد وبكل لغات العالم « جبل طارق ، ومضيق جبل طارق » . فكانت هذه هي المكافأة الطبيعية العظيمة التي حظي بها هذا العبقري ، بجانب اقتران اسمه خلال التايخ بالبطولة المؤمنة ونكران الذات . سار القائد يفتتح المناطق المجاورة بسهولة ، وحينما سمع لذريق ملك أسبانيا القوطي بأخبار هذه الحملة بدأ يجمع جيوشه لمواجهتها فاجتمعت أعداد كبيرة أوصلتها بعض الروايات إلى ما يزيد على المائة ألف محارب . وحينما سمع طارق بأخبار هذا التجمع كتب بالأمر إلى موسى بن نُصير الذي أرسل نجدة من خمسة آلاف جندي ؛ فكملت عدة الجيش الإسلامي اثنى عشر ألفاً ، أكثرهم من البربر الذين كانوا متحمسين لنشر العقيدة .

ويذكر بعض المؤرخين أمراً مثيراً للجدل وهو أن طارق قد أحرق السفن التي عبر فيها من سبتة إلى الجبل ليقطع كل أمل للمحاربين في العودة ، الأمر الذي يدفعهم إلى الاستماتة . وهناك مؤرخون كثيرون لا يميلون إلى تصديق هذه الرواية ويرون أنه من غير المعقول أن يقدم طارق على مثل هذا العمل وهو في أرض جديدة منقطعة ، وأمام دولة كثيرة الجيوش ، فما كان يغيب على مثل ذكائه أنه سيحتاج إلى النجدة ، ولقد تم ذلك فعلاً حين استجاب موسى لاستنجاده بخمسة آلاف جندي ؛ كما أن السفن (علها أو بعضها) التي استعملها طارق كانت ملكاً ليليان حاكم سبتة كمساعدة للجيش الإسلامي .

سار طارق بقواته المتواضعة عدداً المتعالية بقوة العقيدة وسمو الهدف ليلتقي بقوات الجيش الوطني الكثيرة عدداً وعدةً ، المتهافتة معنوياً . كان اللقاء عنيفاً حاسماً في تقرير المصير ، لا مصير الجيشين فقط ، بل - وهذا أهم - مصير العقيدة والغاية التي حملها الجيش الفاتح إلى هناك ، ومصير أسبانيا التي أرهقها الحكم القوطي ظلماً وفوضى .

كان اللقاء في نهاية رمضان سنة ٦٢هـ / ٧١١م عند نهر البرباط ، غير بعيد عن وادي لَكُه في شمال الجزيرة الخضراء جنوب أسبانيا . ويظهر أنه لا صحة

للخطبة المنسوبة إلى طارق والتي ألقاها أمام جنده قبل المعركة مخاطباً : « أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » فلم يكن طارق - وهو من البربر - قد وصل إلى مستوى من الفصاحة ما يُمكنه لارتجال مثل هذه الخطبة ، ولكن المعقول أنه خاطبهم بما يثير حماستهم .

دام الالتحام بين الجيشين حوالي أسبوع قرر مصير شبه الجزيرة الايبيرية ؛ فكان النصر حاسماً للمسلمين ، تشتتت جيوش القوط وقتل الملك لذريق في تلك المعركة التي فقد فيها مُلكه ولم يعثر له على أثر . واستمرت موجة الفتح منتصرة لم توقفها المقاومات المتفرقة . وكان الكثير من الشعب الأسباني قد رحب بها ووجد فيها المنقذ . واستمر هذا المد في التقدم الذي أقر الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية ، ذلك الحكم الذي جعل من قرطبة العاصمة فيما بعد « درة العالم » المزدهرة حضارة وتقدماً . وهكذا قامت هناك للإسلام دولة أنبتت أعظم حضارة .

ويوم كانت الأندلس في القرن العاشر الميلادي تفخر بالمستوى العلمي الذي وصلته وبكثرة جامعاتها ومكتباتها العامة ، كانت أوروبا في عصور قاتمة من الظلام . وحين كانت قرطبة تزدان بالمصابيح في شوارعها المبلطة التي تمتد أميالاً ، كانت عواصم أوروبا محرومة من أي مصباح عمومي ولا يستطيع أحد الخروج من داره في يوم مطير من غير أن يخوض الأوحال . وبينما كانت بعض الجامعات الأوروبية تعتبر الاستحمام عادة وثنية كانت قرطبة تباهي بحماماتها الجميلة الأنيقة .

وعقب الفتح الإسلامي وطيلة ثمانية قرون مرت الأندلس بأحداث كثيرة وعصور عديدة وتقلبت بين الضعف والقوة ، مما جعل دراسة الجانب السياسي لها مثيراً وشيقاً .

ثالثاً : الجانب السياسي للأندلس : (٣)

كما ذكرنا بأن الأندلس مرت خلال قرونها الثمانية بأحداث كثيرة وعصور عديدة وتقلبت بين الضعف والقوة ، القوة التي أخضعت كل الأعداء وجعلت كل دول العالم وحكامها تبعث بسفرائها إلى قرطبة تطلب ود خلافتها وتحرص على صداقتها ؛ والضعف المهين الذي جعل المسلمين ، أيام ملوك الطوائف ، يستعين بعضهم على بعض بملوك إسبانيا الشمالية (المسيحية) . كما ترددت الأندلس خلال هذه القرون بين البطولة والإنهزامية ، البطولة من كل نوع وفي كل ميدان وبلغت من المكانة حيث أن حكام إسبانيا الشمالية يحكِّمون خلافة قرطبة فيما شجر بينهم ، وانهزاميتهم التي دعت بعض حكام الأندلس إلى التنازل عن حصونهم وأرضهم والقبول بدفع الجزية لقاء وعود بمساعدات يتلقونها ضد خصومهم من الأقارب والإخوان . كان ذلك أيام الطوائف زو بعدها حيث انساق ملوك الطوائف إلى ممارسة كثير من التوافه . من ذلك أن ملك سرقسطة من قبل المرابطين ، وهو أبو بكر بن تيفلويت ، كان في مجلس غناء وغنته إحداهن قصيدة لإبن باجه (الفيلسوف المعروف المتوفي سنة ٥٢٢هـ) وكان مطلعها :

جَرِّر الذيل أيما جَسرٌ   وَصِلْ الشكر مِنك بالشكر

فطرب الملك الممدوح وصاح : « واطرباه » وشقَّ ثيابه وحلف بالأيمان المغلظة ألا يمشي ابن باجه إلى داره إلا على الذهب . فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل في نعله ذهباً ومشى عليه . ولاشك أن مثل هذا الملك لا يصلح لإدارة شئون أمة ، وبمثل هذه التصرفات وغيرها ضاع الأندلس الحبيب .

ويقسم المؤرخون تاريخ الأندلس إلى عدة فترات هي :

١ - **فترة الولاة** : من بداية الفتح حتى مجيء عبد الرحمن الداخل في ١٣٨هـ / ٧٥٥م . وحكم الأندلس في هذه الفترة ، التي دامت حوالي أربعين سنة ، عشرون والياً .

٢ - **فترة الإمارة** : وتمتد حتى قيام الخلافة الأموية في الأندلس على يد الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٦هـ / ٩٢٩م .

٣ - **فترة الخلافة** : وتمتد حتى سقوط الدولة العامرية في سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م ، أو قبل ذلك .

٤ - **فترة ملوك الطوائف** : وتمتد حتى قيام دولة المرابطين في الأندلس في ٤٨٤هـ / ١٠٩١م .

٥ - **فترة المرابطين ثم الموحدين** في الأندلس والتي تنتهي - تقريباً - بقيام دولة غرناطة سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م .

٦ - **دولة غرناطة** التي سقطت على يد المليكين الكاثوليكيين (فردناند ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة وليون) في ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م . وبسقوط غرناطة ينتهي حكم الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية .

ويروي لنا المؤرخون بهذه المناسبة قصة مؤثرة ، ذلك أن أحد ملوك غرناطة محمد الحادي عشر ، الملقب بـ « أبو عبد الله الصغير » حين رحل عن غرناطة متوجهاً إلى فاس بالمغرب ، وكانت معه أمه عائشة ، توقف عند مرتفع يُشرف على مدينة غرناطة اسمه « تل البذول » ونظر بحسرة باكية إلى غرناطة الجميلة ، وأجهش بالبكاء وصاح : « الله أكبر » فقالت له أمه : « نعم ابكِ مثل النساء على مُلكٍ لم تحافظ عليه مثل الرجال » .

وهكذا ضاع الأندلس حيث تفككت وحدته واستهان حكامه وجعلوا مصالحهم فوق كل شيء حين ألقوا بإسلامهم ظهرياً .

بلغت الأندلس في عهد الخلافة ، أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، قمة القوة السياسية في العالم المعروف يوما . وتقرب إلى الخلافة أقوى الحكام كالامبراطور أوتو الأول إمبراطور ألمانيا والبابا ، زعيم العالم المسيحي ، كلهم يخطب وده وصداقته ، بل إن بعضهم يطلب التوسط في حل مشكلات معينة .

ونتيجة لهذا الاستقرار كان هناك الإنتاج الحضاري الضخم الذي أنتج لنا ذلك التراث الرائع في كل ميادين الحياة وكافة فروع المعرفة . ويوم سادت الفوضى وذهبت المُثل ضاعت وحدة الأندلس ؛ وإن كانت الروح الإسلامية قد ظهرت في فترات متقطعة في أيام ضعف المسلمين فأرتنا رائعة ناصعة وذلك مثل أيام المرابطين ومعركة الزلاّقة في ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م التي أظهر فيها المسلمون بطولات نادرة ، والإسلام صانع البطولات .

رابعاً : الجانب الحضاري :

شمل الإنتاج الحضاري الإسلامي عموماً ، والأندلسي على وجه الخصوص ، كل النواحي في العلوم والفنون والآداب ، فكانت كل هذه الميادين مزدهرة بإنتاجها وبرجالها الأعلام ؛ فكانت الأندلس أحد معابر حضارة الإسلام إلى أوروبا ، وعلى أساس منه قامت حضارة اليوم ؛ فالأرقام الفرنجية الحالية مثلاً هي عربية ، ربما من أصل هندي طوره المسلمون .

ولم يكن التقدم الحضاري في العلوم أقل منه في الآداب إن لم يزد ؛ فإن ملك ليون (دويلة إسبانيا المسيحية) قد عُزل من منصبه لأن سمنته غدت مفرطة منعته ركوب الخيل وبالتالي من قيادة المعارك ومن أعماله الأخرى . ولم يفلح هذا الملك (شانجة الأول الملقب بالسمين) في العودة إلى عرشه ؛ فلم يجد إلا أن يستعين بالسلطات الأندلسية . وفعلاً استقبله عبد الرحمن الناصر في بلاطه القرطبي ودعا الأطباء لعلاجه فشفي من سمنته ، وفعلاً عاد إلى منصبه .

وهناك أعلام عمالقة في كل مكان ، يُذكر منهم على سبيل المثال : إبن حيان القرطبي الذي لُقب بـ « شيخ المؤرخين الأندلسيين » وهو صاحب الطريقة العلمية النقدية في التاريخ ، ومن مؤلفاته كتاب « المقتبس في أخبار بلد الأندلس » الذي يقع في عشرة أجزاء فُقد أكثرها ؛ وإبن حزم الأندلسي ، العبقرية التي أنتجت في كل ميدان وكان مبرزاً في كل منها ، وهو صاحب كتاب « طوق الحمامة » في فن

الحب والمحبين ، ولقد أحصى ابنه مؤلفاته فكانت حوالي ٤٠٠ مجلد ؛ وأبو عبيد البكري ، الجغرافي الذي سبق عصره والذي قال بكروية الأرض وبرهن عليها في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ؛ والعباس بن فرناس ، صاحب أول محاولة عملية في الطيران ؛ وأبو القاسم الزهراوي ، أيام الخليفة الناصر ، الطبيب الذي بقيت كتبه معتمدة في كليات الطب الأوروبية طيلة قرون عديدة . وهو الذي توصل إلى استخراج الحصوة من المثانة أو تفتيتها ، وإجراء عمليات العين وغيرها .

وحتى في الموسيقى والغناء كانت هناك المدارس المختلفة الزاهرة . ويمكن القول أنه كان للمسلمين في كل علم وفن تراث ضخم وأشخاص لامعون .

فكانت قرطبة تزخر بكل هذا ، وهي العاصمة التي كانت أضواؤها العامة ترى على بعد أميال وشوارعها مبلطة يوم كان في باريس لابد لمن يخرج من داره في يوم مطير أن يخوض الأوحال .

ويذكر أن الخليفة الحكم المستنصر أجرى الماء إلى مسجد قرطبة الجامع من عين بجبل قرطبة في أنابيب الرصاص التي وضعها في قنوات حجرية متقنة البناء تحفظها داخلها .

وفي هذه الآونة تأثر الاعتقاد الديني للناس بهذه الظروف بل يمكننا أن نقول أن الازدهار حدث حين تمسك الناس بدينهم الصحيح والتدهور نتج عندما ترك الناس دينهم وقيمهم ومثلهم .

الفصل الثاني

المذاهب الفقهية

الفصل الثاني

المذاهب الفقهية

كان القرآن أول مصدر مكتوب للتشريع الإسلامي ، وهو ما أوحى به الله إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) - في مسائل العقيدة والأخلاق والشريعة - ليبلغه إلى المسلمين كافة ، وقد جُمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق . وبعد ذلك بقليل اعتبرت السنة مصدراً ثانياً من مصادر التشريع إلى جانب القرآن ، وعندما امتدت حدود مملكة الإسلام من الأندلس إلى سمرقند عرضت للمسلمين مسائل جديدة لم يجدوا لها في القرآن والسنة حلاً صريحاً ، فكان لابد من إعمال « الرأي » لاستخراج الأحكام عن طريق « القياس » ، أو الأخذ « بإجماع » آراء فقهاء المسلمين .

ثم كانت الثورة التي نقلت الدولة من الأمويين إلى العباسيين ، مما أتاح السبيل إلى ظهور مذاهب فقهية مختلفة ، وكان أول ما ظهر منها مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت المتوفي سنة ١٤٩هـ / ٧٦٧م ، وهو مذهب حر فلسفي يعتمد على القرآن ويستخرج الأحكام منه عن طريق الاستنتاج العقلي القائم على المنطق الدقيق وهو « القياس » ، وإزاء المذهب الحنفي ظهر مذهب « الأوزاعي » المتوفي ١٥٧هـ / ٧٧٤م ، وكان من أنصار مدرسة الحديث ، لا يرضى عما استحدثه الأحناف من أقيسة ذات طابع فلسفي . وقد سار أهل الأندلس علي مذهب الأوزاعي ، وظلوا عليه حتى تحولوا إلى مذهب مالك .

المذهب المالكي : [٤]

أما مذهب مالك بن أنس (توفي سنة ١٧٨هـ / ٧٩٥م) فقد جمع بين سَلَفِيَّة الأوزاعي (الأخذ بالحديث) وحرية المذهب الحنفي في الأخذ بالقياس . وقد أعطى

« إجماع أهل المدينة » أهمية خاصة [في بعض المسائل] ، فوسّع بذلك معنى « الإجماع » . ولم يلجأ إلى « الرأي » إلا في حالات الضرورة القصوى ، وربما ابتعد عن النصوص الشرعية إذا رأى أن الالتزام بها ينتج عنه ضرر للمجموع ، ويسمى ذلك الاستثناء في عرف المالكية « بالاستصلاح » . وقد دون مالك مذهبه في « الموطأ » ورتب فيه الأحاديث التي تستخرج منها الأحكام أبواباً بحسب موضوعاتها الفقهية الشرعية ، ثم أورد بعد ذلك ما جرى عليه عمل أهل المدينة ، وأعقب ذلك برأيه الخاص في بعض مسائل قليلة . وقد اتبع معظم أهل الأندلس مذهب مالك من بين كل المذاهب ؛ وقد قامت في رحاب المذهب المالكي ثلاث مدارس يختلف بعضها عن بعض اختلافاً يسيراً : مدرسة سحنون بن سعيد صاحب « المدونة » ومركزها القيروان ، ومدرسة قرطبة ، ومدرسة المالكيين العراقيين ؛ ولم يتبع أحد من أهل الأندلس هذه المدرسة الأخيرة . ويعزى ذلك كما ذكر ابن خلدون في مقدمته إلى أن رحلة الأندلسيين كانت غالباً إلى الحجاز ولم يكن العراق في طريقهم ، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده . وأيضاً إلى تقارب عادات أهل الأندلس مع أهل الحجاز حيث أنهم جميعاً بدو ولم يكونوا أهل حضارة مثل أهل العراق ، مما جعل المذهب المالكي عندهم غضاً ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها ، كما وقع في غيره من المذاهب .

بعد المذهب المالكي ظهر مذهب الإمام الشافعي المتوفي سنة ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م ، وهو مذهب وسط بين الأطراف المتباعدة نتيجة وجود خلاف بين هذه المذاهب ، لأن بعضها كان يلتزم المأثور لا يخرج عنه ، ويذهب بعضها الآخر إلى استخدام الرأي وإعمال الذهن كثيراً أو قليلاً . وقد نسق المذهب الشافعي أصول الفقه التي أخذت بها المذاهب المختلفة ، فأخذ بالقرآن والسنة ، وأخذ بالإجماع في المسائل التي جرى العمل بها في كافة بلاد الإسلام ، لأن إجتماع آراء المسلمين على صورة حقيقية عامة لا يكون إلا بتوفيق من الله . وذهب الشافعي كذلك إلى تعميم استعمال القياس

وإعمال الرأي .

ثم ظهر داود الظاهري المتوفي سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٣ ، فتعصب للمأثور من الكتاب والسنة وترك الإجماع وذهب إلى الاقتصار على المعنى الحرفي للكتاب والسنة كأصل للفقه ، وأعرض عن القياس تماماً ، وضيق حدود الإجماع إلا بما أجمع عليه الصحابة ، ونهى عن « التقليد » ودعا إلى التعمق والشمول في دراسة الكتاب وتفسيره تفسيراً حرفياً . ويكاد مذهب ابن حنبل يشترك مع المذهب الظاهري في كل هذه الاتجاهات ، وقد وضعه أحمد بن حنبل المتوفي سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٥م ، وكان أقرب إلى المشتغلين بالإلهيات والمحدثين عنه إلى أهل الفقه .

مصادر المذهب المالكي : (٧)

إن الأصالة التي اتسم بها المذهب المالكي ، تجعل الباحث عن مصادر هذا المذهب غير قادر على جمع عناصر بحثه ، ما لم يتطرق إلى الكشف عن معطيات البيئة التي نشأ فيها هذا المذهب ، وعن خاصيّات المناخ التي منها تغذى . ثم لتجلية هذه المصادر للمذهب المالكي ، لابد من الكشف عن بعض الجوانب في حياة إمامه ، وأهم آثاره التي جعلت من عمله مذهباً ، بل مدرسة من مدارس الفقه الإسلامي ، بل منهجاً من مناهج العلم والتفكير والاجتهاد عند المسلمين . ثم لابد من وضع الاصبع على الخيط الدقيق الذي يصل المناخ العام بالبيئة الخاصة لإمام دار الهجرة ، مروراً بشيوخه الذين أخذ عنهم وأفاد منهم ، فكان لتلكم الإفادة تأثيرها في منهجية مالك العلمية ، هذه المنهجية التي نتبين مداها في استعراض أهم الأصول التي قام على أساسها المذهب المالكي .

المصدر الأول لمذهب مالك : المدينة :

تعتبر المدينة المنورة هي أول المصادر بالنسبة للمذهب المالكي ، للارتباط المادي الذي بينها وبين هذا المذهب ، وللانعكاسات المعنوية التي أفادها هذا المذهب من جو المدينة ومناخها . فمن الطبيعي أن يكون جو المدينة المنورة ذا تأثير كبير

في شخصية عالم مجتهد ، وزعيم مدرسة عن مدارس الفقه الإسلامي ، مثل مالك ابن أنس الذي ولد في مكان بشمال المدينة يعرف بـ « ذي المروة » وعاش طيلة حياته بجوار الحرم المدني ، وتلقى تعليمه في أول مدرسة عرفها الإسلام ، وهي الروضة الشريفة ، التي عم إشعاعها كامل العالم الإسلامي ، والتي ضاعف من حرمتها بالإضافة إلى كونها إحدى الحرمين الشريفين ، كونها مدرسة ، أول شيوخها هو أعظم خلق الله قدراً وشرفاً محمد بن عبد الله خاتم الرسل والنبيين ، الذي بلّغ في رحابها ما أوحي إليه من ربه . وأول طلابها الثلة الطيبة من أعلام الهدى ، الذين قال فيهم أستاذهم صلى الله عليه وسلم : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . في هذه المدرسة توالت الأجيال ، تتناقل مشعل المعرفة خلفاً عن سلف ، فانتظمت سلسلة الهداية : طبقة الصحابة الذين أخذوا مباشرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحملوا علم الشريعة بما وعت صدورهم من كلام الله وسنة رسوله ، وبما حرصوا عليه من إدراك أسرار التشريع ومقاصده ، وبما ألزموا أنفسهم به من الأخذ بأخلاق النبوة وعادات رسول الله ، حتى كان الواحد منهم لا يترك من حركات الرسول شيئاً ، ولا يترك الائتساء به حتى في مأكله ومشربه ، مما يدخل في نطاق الأمور العادية وليس له بالتشريع أي مساس ، وبذلك استحقوا رضوان الله ورسوله ، كما استحقوا إعظام الأمة الإسلامية وتكريمها ، بإجماع كل الأجيال في كل زمان ومكان على فضلهم وعدالتهم .

ثم كانت طبقة التابعين الذين أخذوا عن هؤلاء الصحابة ، وتأثروا بهم ، محاولين أن يستعيضوا عن فوات الصحبة ، مزيداً عن العلم بأحاديث الرسول وشمائله وأحواله وسيرته وغزواته ، كل ذلك بالإضافة إلى حفظ كلام الله ، واستنتاج ما تنبئ عنه آياته من أحكام وآداب ومواعظ .

ثم كانت طبقة تابعي التابعين ، الذين تمسكوا بتلابيب شيوخهم من التابعين ، يستنفذون زادهم ، ويستشفون من أحوالهم ومعارفهم ما يدركون به أحوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرتهم ومناهي اجتهاداتهم ، إلى هذا الرعيل

الطيب ، وإلى هذه السلفية المباركة ينتسب مالك إمام دار الهجرة .

فوجود الإمام مالك في خصوص المدينة ، ونشأته بها وملازمته إياها ، بحيث لم يبرحها لأبعد من مكة في بعض مواسم الحج ، وإقباله على نخبة موثوقة من شيوخ العلم والرواية بها ، وعلى استقصاء الآثار والعمل الذي هو وليد تقاليد إسلامية تمالأ عليها أهل المدينة ، ودخلت في عرفهم ومألوف عادتهم ، التي نفاها الإسلام ونفى خبثها كما تنفي النار صدأ الحديد ، كل ذلك له دخل محسوس في تكييف مذهبه ، وفي اصطباغه بصبغة سلفية ، إزداد بها حسناً في نظر الجماعات في مختلف الأمصار الإسلامية ، التي تعترف جميعها وبدون استثناء ، بالزعامة الدينية والتشريعية والحديثية للمدينة .

وإذا نحن سلمنا للمدينة المنورة بهذا التأثير في تكييف مذهب مالك ، فعلينا أن نسلم - بطبيعة الأمر - أن وضع المدينة في العالم الإسلامي قاطبة ، باعتبارها مقصد روّاد المعارف الإسلامية ، هؤلاء الرواد الذين يجدون فيها أصول الدين وأحكام الشريعة ، مأخوذة من أدلتها النقية ، التي نقلها الثقاة من شيوخ الحفظ والرواية بطرق مشهود لها بالتواتر ، أو مشهود لها بالشهرة التي تقارب حد التواتر ، ويمكن القول بأن هذا الوضع للمدينة المنورة ، هو الذي كون مناخها الفكري ، وبيئتها العلمية التي تعتبر أن لا دراية ما لم يكن المنطلق من الرواية ، وجملة هذا المحيط بما فيه من نقل ورواية ، وفكر واجتهاد ، واستشراق وبعد عن التعقيد ، هو الذي جعل من المدينة عموماً ، ومن حلقات الروضة الشريفة كعبة طلاب العلم التي لا يجدون لها عديلاً .

ومن هنا نستطيع أن نفسر ما تطالعنا به كتب الطبقات وكتب التراجم حين تروي لنا أن هذا العالم أو ذاك حج وطال بقاؤه في بلاد الحجاز ، فما ذلك إلا لازدواجية الحج عند هؤلاء ، فهو حج بقصد زيارة الكعبة بيت الله الحرام ، وحج في الوقت نفسه بقصد زيارة كعبة العلم ، مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث روضته الشريفة ، التي تنتظم في رحابها حلقات علوم الشريعة وأصول الدين .

ولعل مالك وهو في سن طلبه للعلم ، وحتى بعد ذلك حين انتصب لطلابه يسمعهم مما يروي ويفقه ، لو بان له أن بلداً من بقية البلدان الإسلامية ، فيها ما ليس بالمدينة من أحاديث رسول الله ، أو من علوم الشريعة ، لما تردد في شد الرحال إليها ، ولما ألزم نفسه بما ألزم به أبو بكر وعمر وجملة صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم من عدم الخروج من أرض الحجاز .

هذه هي المدينة كما شاءت أن تميزها به الأقدار ، فكانت التربة الصالحة لنشأة هذا المذهب ، فصدر عنها كما يصدر الابن الصالح عن الأم الصالحة ، أو كما يصدر النبات الطيب عن التربة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

<u>المصدر الثاني</u> : <u>شخصية مالك بن أنس</u> :

الحديث عن عوامل التكوين والتثقيف بالنسبة لمالك ، هو حديث عن شخصية هذا الإمام بالدرجة الأولى ، ثم هو حديث بالتالي عن المصدر الثاني من مصادر المذهب المالكي ، لأنه المذهب الذي يتصل بهذه الشخصية بصورة مباشرة ، والذي تنعكس عليه مقومات ذلك التكوين ولو بدون قصد .

والحديث عن مالك من زاوية ما ظهر على يديه من خوارق - على فرض التسليم بها جدلاً - لا يعنينا في شيء ، كما لا يزيد شيئاً من قيمة هذه الشخصية ، مادام لا تأثير له من قريب أو بعيد على علم مالك ولا على مذهبه ، لأن هذا يتنافى مع سلفية مالك التي تكره كل ابتداع ، كما يتنافى مع عصامية مالك وحرصه وكده في طلب العلم يوم كان طالباً ، وتمحيصه وإبلاغه يوم أصبح شيخاً ورائداً .

وللتدليل على ذلك ، نسوق من أخبار هذا الشاب ما هو أعمق في الدلالة من المناقب ، ونبدأ بتدخل الأم لإرشاد هذا الإبن الشغوف بالعلم ، هذا الإبن الذي لا يريد أن يتخلف عن بيئته الخاصة ولا عن البيئة العامة ، فجده (مالك بن أبي عامر) من كبار التابعين ، روى عمر وعثمان وطلحة بن عبيد الله وعائشة رضي الله عنهم جميعاً ، وأبوه (أنس) روى عن والده ، وعمه (أبو سهيل نافع) كان أكثر عناية بالرواية وقد عدَّ من شيوخ ابن شهاب الزهري ، وإن كان مقارباً له في السن

ومتأخراً عنه وفاة ، ثم أخوه (النضر) فقد اشتهر بين طلاب العلم ، حتى كان مالك في أول طلبة يعرف بأخ النضر . هذه نبذة من بيئة مالك الخاصة ، وأما بيئته العامة فهي بيئة المدينة المنورة ، التي أسلفنا الحديث عنها ، واعتبرناها أول مصدر من مصادر المذهب المالكي .

لقد تضافرت هاتان البيئتان على دفع مالك لطلب العلم ، فيقبل الشاب على أمه ليخبرها بما يعتزم ، فتقوم بدورها كما تفعل الأم المدركة المسؤولة ، وتعمم ابنها وتلبسه أحسن ثيابه وتقول له : « اذهب الآن فاكتب » ، ولا تكتفي بهذا ، بل تمضي إلى ما هو أبعد فتختار له بمن يبدأ من الشيوخ وتقول له : « اذهب إلى ربيعة فتعلم من علمه قبل أدبه » .

فمن هو ربيعة هذا ؟ وأي علم ، ثم أي أدب تعني ؟

هو ربيعة بن عبد الرحمن فروخ المدني التيمي المتوفي سنة ١٣٦هـ ويعرف « بربيعة الرأي » واختيار الأم له ليس من باب الصدفة أو عن طريق المحاكاة والسماع ، وإنما كان هذا التفضيل لأسباب ، أهمها : أن ربيعة هذا كان تيميا بالولاء ، وبين تيم وجد الإمام مالك حلف تذكره هذه الأم ، وتعتبر أن آثاره باقية في الخلف يأخذونها بعين الاعتبار . ثم تأتي شهرة ربيعة وما يتحدث الناس عنه من سداد الرأي وذكاء اللب ، وحسن الفروق ، واعتدال المزاج .

ويتم اتصال الطالب بشيخه ، وتتمتن العلاقة كما هو الشأن في مثل هذه البيئة العلمية ، ويأخذ عنه منهجيته الخاصة ، ويتفقه بشيء من فقهه . ويتأثر في النهاية بهيئته وسلوكه وذوقه . أما منهجيته وفقهه ، فالمراد بهما ما أطلق عليه « فقيه الرأي » وهو عند علماء المدينة اعمال الرأي في النصوص جمعاً أو تَرجيحاً أو نقداً ونقضاً ، دون الوقوف أمامها وقفة الحيرة والاستسلام ، وكان الطالب يجد في هذا العمل ، وهذه الطريقة لذّة ، ولهذا نجده كلما ذكر شيخه قال : « ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأي » . فمن ربيعة تعلم مالك ما جعله يكره توليد المسائل ، وافتراض الصور ، مما دفع تلاميذه إلى التآمر عليه أحياناً ، فيوعزون

إلى بعض العامة لسؤاله بمحضرهم عن مسألة من هذه المسائل ، كما لو أنها وقعت فعلاً ، وبهذه الحيلة وحدها يستطيعون أن يقتلعوا منه الجواب .

وكما تأثر مالك بعلم ربيعة ومنهجيته ، تأثر بذوقه وحسن هندامه ، فصار يقلد شيخه في لباسه ، وخاصة في لبس الأقمصة الرقيقة ، ويصرح مالك بهذه الميزة في هندام شيخه ، بمحاكاته له فيقول : « ما أدركت أحداً يلبس هذه الثياب الرقاق ، وإنما كان يلبسون الصفاق إلا ربيعة فإنه كان يلبس مثل هذان (ويشير إلى قميصه الرقيق) . وهكذا تهيء الأم ابنها لينشأ حريصاً على العلم جاداً فيه ، جاداً في تصرفاته وتفكيره .

ولم يتأثر مالك بشيخ واحد من شيوخه ، بل إن تكامل شخصيته كان من تأثير مجموعة من التأثيرات ، ترجع إلى البارزين من شيوخه ، نذكر منهم بالإضافة إلى ربيعة الرأي ، عبد الرحمن بن هرمز (الملقب بالأعرج) الذي كان مالك من أشد المعجبين به والمقدرين لسعة علمه ، ويحدثنا مالك عن مدة مصاحبته للأخذ عنه فيقول : « جلست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة في علم لم أبنه لأحد من الناس » . وقد يستغرب الإنسان من هذا العلم الذي يكتمه مالك ، ويعترف بأنه لم يبثه لأحد من الناس ... وتزول هذه الغرابة حين نعلم أن مالكاً الذي تصدى لقيادة فكرية ولرئاسة مدرسة من المدارس الفقهية ، يؤمن بأن هذا العلم تفوق مضرته نفعه بالنسبة للعامة ، وإن كان لابد للخاصة بل وخاصة الخاصة أمثاله من معرفته والخوض فيه ، استعداداً لنصرة الحق ، إذا ما داهم باطل أو ظهرت في الأفق بدع وضلالات من شأنها أن تحدث اضطراباً أو بلبلة في عقيدة الناس . من أجل كل هذا نجده يركن إلى ابن هرمز ، ويلازمه طيلة هذه المدة ، ليأخذ عنه علم العقيدة - على حاله في ذلك العصر - سواء في ذلك عقيدة أهل السنة أو عقيدة الفرق ، التي استفحل أمرها من خوارج وشيه بنحلهم الكيسانية والامامية والزيدية وغيرها .

وإذا أخذ مالك من شيخه « ربيعة الرأي » علمه ومنهاجه في فقه الرأي كما أشرنا ، فقد أخذ عن شيخه « ابن هرمز » علم العقيدة ، كما أخذ بآدابه وتأثر

بحكمته ، ونجده يردد أقوال شيخه التي فعلت مفعولها في نفسه فيقول : « سمعت ابن هرمز يقول : (ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول : « لا أدري » ، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري ، قال : «لا أدري».

بهذه المنهجية أخذ مالك وعمل ، وهي منهجية قويمة لأنها تورث التواضع العلمي والبعد عن كل ادعاء ، كما تورث التريث والبعد عن كل الطفرات التي توقع في الزلل والخطأ ، وتطالعنا الروايات العديدة عن مالك بأنه كان كثيراً ما يجيب بـ « لا أدري » في عديد من المسائل التي سئل عنها ، وهذا أحد تلاميذه - ابن وهب - يقول : « كان مالك يقول في أكثر ما يسأل عنه لا أدري » .

ونصل إلى علم ثالث من العلوم التي رسمت شخصية مالك وطبعت تكوينه ، هو ما يمكن أن نطلق عليه اطلاقاً جامعاً علم الأثر ، وهو علم نقلي قوامه رواية الحديث ، والتعرف على عمل الصحابة وفتاواهم وفتاوى التابعين ، وهذا العلم هو قطب الدائرة في مذهب مالك ومدرسته ، وبه صار مالك وريث مدرسة المدينة أو مدرسة الحديث .

يذكر الناقلون عن الزرقاني في شرحه على الموطأ ، وعن المقدسي في كتابه التنوير أن من روى عنهم مالك يبلغ عددهم التسعمائة أو يزيدون ، ولا يعقل أن يكون قد حصل لمالك تأثير منهم جميعاً ، إنما الذين تأثر بهم تأثراً ملحوظاً ، هم الذين لازمهم أمثال من ذكرنا ، أعني : نافع مولي ابن عمر ، وربيعة الرأي ، وابن هرمز وإن كنا لا نجد لمالك رواية عن ابن هرمز ، رغم أنه كان ينقطع للأخذ عنه في السنوات الأولى من اتصاله به ، ثم صار يتردد عليه إلى سنة وفاته ١٤٨هـ والسبب في عدم ذكره فيمن روى عنهم - كما جاء في بعض الروايات - أن ابن هرمز استحلفه أن لا يذكر اسمه في حديث . وبعد هؤلاء الثلاثة ، يبقى عدد من الشيوخ الذين لازمهم مالك وتأثر بهم وفي طليعتهم ابن شهاب الزهري المتوفي في نهاية الربع الأول من القرن الثاني ، وقد اعتبر من أعلم الحفاظ ، كما اعتبر الواضع لعلم رواية الحديث ، هذا إلى علمه بالفتيا ، ولذلك عد من فقهاء المدينة ، ثم إن له ثقافة

أدبية واسعج وعلماً بالأنساب ، ولا يستبعد بعد هذا أن يكون على رأس المدونين للسنن في عصره ، حينما طلب منه ذلك عمر بن عبد العزيز ، مما جعل الشافعي يقول فيه : « لولا الزهري لذهبت السنن من المدينة » وحين عاد الزهري إلى المدينة بعد مقام في بلاد الشام أقبل عليه الطلاب ، ومن بينهم مالك الذي نجده يقول : « كنا نزدحم على درج سلم بابه » . ويحاول مالك أن يستأثر بشيخه ، فيختار لذلك يوم العيد ، وفي ذلك يقول « شهدت العيد فقلت هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب ، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه فسمعته يقول لجاريته : انظري من بالباب ؟ فنظرت . فسمعتها تقول : مولاك الأشقر مالك . فقال : أدخليه. فقال : ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك ؟ فقلت : لا . قال : هل أكلت ؟ قلت : لا قال : أطعم ؟ قلت : لا حاجة لي فيه . قال : فما تريد ؟ قلت : تحدثني . قال : هات الألواح . فأخرجت ألواحي فحدثني بأربعين حديثاً . قلت : زدني ، قال : حسبك ، إن كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ » . هذه هي مكانة الشيخ ، وهذا هو إقبال مالك عليه وحبه الاستفادة منه ، فلا غرو بعد ذلك أن يكون تأثر به تأثراً عظيماً .

وبالإضافة إلى هؤلاء نذكر من أعلام شيوخ مالك محمد بن المنكدر ، الذي توفي سنة ١٣٠هـ ، وهو من فقهاء المدينة والمعدود في طبقة العبّاد والزهاد ، وهو حبة من حبات عقد بني يتم الذي يتوسطه أبو بكر الصديق ، ومما يدل على ورعه وفضله جوابه هذا على سؤال الناس : أي الأعمال أفضل ؟ فيقول : ادخال السرور على المؤمن ، ويسأل أي الدنيا أحب إليك ؟ فيقول : الافضال على الاخوان . وكان لا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا بكى . وقد تأثر مالك زيادة على علمه بهذه الروح الشفافة مما دفعه إلى أن يقول : « كنت إذا وجدت من نفسي قسوة اتي ابن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأبغض نفسي أياماً » .

كما أخذ وتأثر مالك بجعفر الصادق بن محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن علي ، هذا الذي حوى علوم أهل البيت وكان متبحراً

في الفقه وفي العلوم الطبيعية ، فهو أحد أساتذة جابر ابن حيان أول كيميائي في التاريخ ، وقد روى له مالك في الموطأ تسعة أحاديث ، ووصف مالك لقاءه لهذا الشيخ فقال : « كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم ، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اخضر واصفر ، ولقد اختلفت إليه زماناً ، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصلياً ، وإما صائماً ، وإما يقرأ القرآن . وما رأيته يحدث عن رسول الله إلا على طهارة ، ولا يتكلم فيما لا يعنيه وكان من العلماء والعباد والزهاد الذين يخشون الله . وما أتيته قط إلا ويخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي » .

عن هؤلاء الأفذاذ وأمثالهم اتصل مالك بل جمع مالك علم أهل المدينة فكان وريث هذه المدرسة عن جدارة .

وبواسطة هؤلاء الشيوخ اتصل مالك بعلم الفقهاء السبعة وعلى رأسهم سعيد بن المسيب ، الذي يعتبر في طبقته صاحب اللواء في القيام على مدرسة المدينة ، فقد جمع إلى الحديث الفقه مع الزهر والعبادة .

وعن طريق هؤلاء الفقهاء السبعة ، يتصل علم مالك بشهود الوحي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أخذوا مباشرة أو بواسطة على أمهات المؤمنين ، وأبي بكر ، وعمر ، عثمان ، وعلي ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي هريرة ، وابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم من أركان الطبقة العليا لمدرسة المدينة .

ومن بين هؤلاء الفقهاء السبعة ، اعتبر مذهب سعيد بن المسيت (بصورة خاصة) أصلاً لمذهب مالك ، ولعل تعليل هذا نجده فيما قاله في شأنه ابن المديني ، قال : « لا أعلم أحداً في التابعين أوسع من سعيد علماً ، وهو عندي أجل التابعين ، وكانت الفتوى إذا جاءت المدينة ، لايزال عالم يردها لآخر إلى أن نصل إليه فيفتي ، وكان يقال له الجريء لجرأته على الفتوى بسعة علمه وحفظه » . وتحدث هو عن نفسه ، كما رواه الجاحظ في أحد مؤلفاته قال : « ما قضى رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي قضاء إلا وقد علمته » . فما أشبه مالكاً بسعيد وما أشد انطباق الكلمة المأثورة التي جرت ، مثلاً « أيفتى ومالك بالمدينة » علي سعيد ، بل ، بل لعل مالكاً قد ورثها كما ورث مذهب أهل المدينة عن سعيد .

المصدر الثالث : الموطأ أو أصول مذهب مالك :

إننا حين نتحدث عن الموطأ ، لا نتحدث عن مصدر من مصادر المذهب المالكي كالمصدرين السالفين ، لأن الفضل في تكوين مالك على الهيئة التي جعلت منه زعيم مذهب وإمام مدرسة ، إنما يعود لهذين المصدرين وليس الشأن كذلك بالنسبة للموطأ لأن مالكاً هو الذي كون الموطأ ، وليس الموطأ هو الذي كون مالكاً .

وبالرغم من هذه الملاحظة التي تفرق بين المصدرين السابقين في الاعتبار ، وهذا المصدر الذي هو الموطأ ، فالكثير من العلماء يصرون على اعتبار الموطأ مصدراً للمذهب المالكي وأي مصدر ؛ ويقول في ذلك أن الموطأ وإن كان من نتاج مالك الذي حوى زبدة المنهجية لمذهبه ، فإنه قد انقلب المرجع الأساسي للأجيال المتعاقبة ، يوضح لهم معالم الطريق ، ويقدم لهم بطريقة عجيبة وفريدة في نوعها - إلى الآن - جملة الأصول التي اعتمدها هذا المذهب ، والتي بقيت هي بعينها ثابتة ككل بناء شامخ مكين . فالموطأ إذن ، قد أصبح المصدر الذي يدل على نفسه ويدل على المصدرين السابقين في نفس الوقت . ففي الموطأ نجد المدينة بنورها الذي أشع على ماداها من الأمصار ، وبسنتها التي هي السنة النبوية الشريفة ، وبصحابتها الأخيار وعملهم وفتاواهم ، وبإجماع تابعيهم على الأخذ بسنتهم واقتفاء آثارهم ، وبزادها الزاخر من علمي الرواية والدراية ، وفي الموطأ تتبين قوام مدرسة المدينة ، الذي حافظت عليه جماعة الإخلاص والصدق من التابعين ، بأذهانهم النيرة وقلوبهم الواعية ، حتى سلموا الأمر بأمانة إلى تابعيهم - الذين هم طبقة شيوخ مالك - فكانوا خير خلف لخير سلف وخير ورث لمن جاء بعدهم من التلاميذ هذه الأمانة وهذا الدين .

وحين نذكر هؤلاء التلاميذ ، يبرز لنا من بينهم ألمعهم وأحفظهم وأفقههم وأصفاهم ذهناً ، الذي حاز لقب الأمانة في العلم وزعامة مدرسة الحديث ، إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، والذي صار قطب الدائرة ، وإليه نسب علم المدينة وسلفيتها ، لأنه هو الذي جعل هذا العلم يشع من بعيد ، أو يبشر به بعض الوافدين ثم يعودون سريعاً . ونظرة على رواه الموطأ الذين أخذوا عن مالك مباشرة ، نجد أن عددهم لا يقل عن الألف ، وفد جلهم على المدينة من الأقطار الإسلامية النائية ، ليأخذوا عن مالك علمه ومروياته وطريقته في الاستنباط والاجتهاد ، ثم عادوا ينشرون هذا العلم الذي وجدوا فيه رونق الإسلام وحلاوة الإيمان .

وكان نصيب أفريقيا ، والأندلس من هؤلاء الطلاب ما لا يقل عن الأربعين طالباً ، خمسة منهم طالب صحبتهم لمالك حتى رووا عنه الموطأ وصاروا في عداد أصحاب الموطآت ، وهم حسب ترتيب وفاتهم :

١) علي بن زياد التونسي المتوفي سنة ١٨٣هـ وهو أول من أدخل الموطأ في أفريقيا .

٢) أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن الملقب بشبطون المتوفي سنة ١٩٣هـ وهو أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس .

٣) أبو محمد الغازي بن قيس الأموي المتوفي سنة ١٩٥هـ تقريباً وهو أول من أدخل قراءة نافع إلى الأندلس .

٤) أسد بن الفرات صاحب الأسدية والجامع بين فقهي مالك وأبي حنيفة المتوفي سنة ٢١٣هـ .

٥) يحي بن يحي الليثي المتوفي سنة ٢٣٤هـ ، صاحب الرواية المشهورة والرائجة من روايات الموطأ ، الذي لقبه مالك « بعاقل الأندلس » . وموطأ يحي هو المتبادر إلى الأذهان عند الإطلاق وعدم التقييد .

هذا هو في عجالة دور الموطأ وكيف أصبح مصدراً لمذهب مالك ، هذا المذهب الذي أخذ بخلاصة علم أهل المدينة ، والذي كان أحسن ترجمان عن مدرستها .

أصول مذهب مالك من خلال الموطأ :

ولا نترك الحديث عن الموطأ وعن دوره قبل أن نتبين منهج مالك في تأليفه ، هذا المنهج الذي يعطينا صورة متكاملة عن أصول مالك وأدلته ، كما يراها هو وكما يراها شيوخه ، وشيوخ شيوخه بالتسلسل إلى أعلام الهدى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذه منهجية المدينة إذن ، ولكن مالكاً اقتنع بها وارتضاها ، وثبت أصولها ، ويحدثنا البهلول بن راشد القيرواني المتوفي سنة ١٨٢هـ عن شيخه مالك ، فنتبين هذه المنهجية من خلال كلامه إذ يقول : « ما رأيت أنزع بآية من كتاب الله من مالك بن أنس ، مع معرفته بالصحيح والسقيم ، والمعمول به من الحديث والمتروك ، وميزة للرجال أو صحة حفظه ، وكثرة نقده ، إلى ما يؤثر عنه من الكلام في غير ذلك من العلوم ، كرسالته إلى ابن وهب في الرد على أهل القدر ، وكقوله « جالست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة في علم لم أبثه لأحد من الناس » .

فمالك يعتمد كتاب الله في طليعة ما يعتمد ، وباعه في ذلك طويل ، لأنه أعرف بمدلول الآيات ، ثم هو يعتمد في الدرجة الثانية الآثار التي صار صاحب الخبرة فيها ، لأنه عارف بالصحيح والسقيم والمعمول به والمتروك ، مع ما يستلزم كل هذا من معرفة بالرجال ، ومن ملكة نقدهم وجودة حفظ للمرويات .

ولعل أهم قضية فيما قاله البهلول ، وتحدث به عن مالك ، هي قضية المعمول به والمتروك ، لأنها القضية التي تضع الاصبع على جوهر منهجية مالك في مذهبه ، فالآثار والسنن بالمدينة المنورة ثروة لا تنضب ، ولكن اعتمادها وتمحيص المعمول به من المتروك والجمع بين المختلف منها ، وترجيح المتعارض ، والتوقف في المعوجات هو مجال اختصاص مالك ، وبالتالي هي نقطة تباين الأنظار بين مدرسته ومدرسة أهل الرأي من العراقيين .

ولعل قضية المعمول به والمتروك هي السبب الخلفي الذي دعا مالك لوضع

كتاب الموطأ ، حتى يكون كتاب حديث صحيح ، فكان أول كتاب التزم الصحيح مما وصل إلينا من كتب الحديث ، وقد قال فيه الشافعي : « ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك » . ولا يستبعد أن يكون وضعه كذلك ، حتى يكون كتاب علم الشريعة ، وتلك من أعظم مزايا الموطأ ، ونعني بعلم الشريعة كل ما جاء في الموطأ من الأحاديث الصحيحة ، ومن علم الخلفاء الراشدين وقضاياهم ، ومن علم فقهاء الصحابة ومن جاء بعدهم من فقهاء المدينة ، ومما جرى عليه العمل عند أهل المدينة ، مما أصله النقل والرواية باعتباره راجعاً إلى تلقي المأثور عن عمل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وقضاة العدل وأئمة الفقه . وهذه هي مزية مالك العظمى في الموطأ ، والغريب في الأمر أن بعض ممن لا يقلب الأمور تقليباً حسناً ، قد عدوا هذا من عيوب الموطأ ، ومن خلال النقل الآتي ، الذي ذكره المرحوم الشيخ ابن عاشور (الأب) وهو نقل لابن العربي عن أبي الهياب ، نتبين أن الموطأ هو بالفعل قضية المعمول به والمتروك ، التي اقتحمها مالك بكل كفاءة وجرأة ، جاء في هذا النقل : « إن مالكاً روى مائة ألف حديث وجمع في الموطأ عشرة آلاف حديث ، ولم يزل يعرضها على الكتاب والسنة ويخبرها بالآثار والأخبار حتى رجعت إلى خمسمائة » .

وإذا قضى مالك حياته أو أربعين سنة منها على الأقل ، في تمحيص مائة ألف حديث ، ليخرج منها بعد ذلك بخمسمائة معتمدة ، فهنا يكمن سر هذا المذهب وسر هذه المدرسة الحديثة ، وهنا يتجلى الرأي والقياس بين هذه المادة الثرة من الآثار ، لا في سحب الحكم من موضع العلة المعلومة أو المتصيدة على موضع الاشتراك أو مظنة الاشتراك في هذه العلة كما هو الكثير الغالب عند العراقيين ، وإن كان مالك لم يهمل ذلك بالمرة ، كما لم يهمل ما هو أبعد من ذلك ، من مثل الأخذ بالمصالح المرسلة ، وهي المصالح التي لم يشهد لها نص صريح بالبطلان ولا بالاعتبار ، وإنما هي ترجع إلى مقصد شرعي معلوم ، وعلم كونه مقصداً من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، كمثل الكليات الخمس التي أوجب الشارع المحافظة عليها . ومن مثل العمل

بالاستصلاح ، الذي يسميه الحنفية استحساناً ، وهو عبارة عن مراعاة المصالح الجزئية التي توجب عدم الاسترسال مع القياس .

وقد خضع مالك لحكم المصالح إن لم يكن نص ، لأن الشرع ما جاء إلا لمصالح الناس ، ولأن كل نص شرعي مشتمل بلا ريب على مصلحة ، سواء ظهرت لنا هذه المصلحة أو خفيت عنا ، فإذا لم يوجد نص في قضية ما فالوجه اعتبار المصلحة الحقيقية الملائمة لمقاصد الشرع ، إذ تصبح هذه المصلحة شرع الله تعالى .

ولم يكن حظ إمام دار الهجرة مالك بن أنس من هذا النوع من الاجتهاد والنظر ، بالحظ المنقوص ولا بالمقدار المشط . وقد أخذ مالك في مسائل كثيرة بالاستصلاح من ذلك مسألة تضمين الصناع ، ومسألة جبر صاحب الفرن والرحى ، ومسألة المؤاجرة في الحمام للناس على السواء ، لكنه لم يتوسع في ذلك ، مقدار توسعه في سد الذرائع ، والمراد بسد الذرائع : اعتبار ما يؤدي إلى الحرام حراماً ، وما يؤدي إلى الحلال حلالاً ، وكذلك ما يؤدي إلى مصلحة يكون مطلوباً ، وما يؤدي إلى مفسدة يكون حراماً .

هذا هو الموطأ الذي عددناه مصدراً ثالثاً من مصادر المذهب المالكي . وما كان ثالثاً إلا باعتبار الترتيب الزمني ، أما باعتبار المترتبة فهو المصدر الأول دون منازع ، وهو المصدر العجيب والفريد ، وهو الكتاب الإمام لمؤلفه الإمام ، الجامع لأصول المذهب الإمام وهو الكتاب الإمام ، لأنه كتاب الشريعة كما سماه الشيخ ابن عاشور وكما شهد له الشافعي فوضعه في مرتبة ثانية بعد كتاب الله ، هذا أولاً ، وثانياً لأنه الذي وضع طريقة الاقتصار على الصحيح من الأحاديث ؛ فكان بذلك إماماً لما ألف بعده من كتب الصحاح ، وثالثاً لأنه أول واضع للترتيب والتبويب الفقهي ، ورابعاً وهذه هي المزية التي بقي متفرداً بها ، وهي أنه الجامع لعلم كثير من علم الصحابة والتابعين ، والمصور للبيئة الفكرية والاجتماعية ، لأولى عواصم الإسلام طيلة القرنين الأولين للهجرة .

هذا هو الموطأ الذي استدعى تأليفه جهود أربعين سنة ، كما يؤخذ ذلك من

قول مالك لطلابه : « كتاب ألفته في أربعين سنة أخذتموه في أربعين يوماً ! قل ما تفقهون فيه » .

هذا هو المذهب المالكي مذهب السلف الصالح ، وهذا هو إمامه السلفي الحصيف ، وهذا هو الموطأ الذي لولاه لفاتنا خير كثير وعلم غزير .

دخول المذهب المالكي إلى الأندلس : (٥)

لازالت مسألة من أدخل المالكية إلى الأندلس غامضة ، فيذهب المقري إلى أن الأندلسيين كانوا على مذهب الأوزاعي ، ثم جاء نفر من الفقهاء إلى الأندلس أثناء خلافة الحكم المستنصر (١٧٩هـ / ٧٩٦م - ٢٠٥هـ / ٨٢١م) ، وقد سار هؤلاء الفقهاء في أحكامهم على رأي مالك وأهل المدينة ، وأقرهم الحكم على ما ذهبوا إليه ، بسبب ما حدثه به تلاميذ مالك من الأندلسيين عن فضله وعظيم أثره وشهرته . ويذكر المقري أيضاً أن تحول الأندلس إلى المالكية تم على يد نفر من الفقهاء أعظمهم عبد الملك بن حبيب ويحي بن يحي الليثي وأبو عبد الرحمن زياد بن عبد الرحمن اللخمي الملقب بشبطون ، ويقال إن هذا الأخير كان أول من أدخل المالكية إلى الأندلس ، وأما ابن القوطية فيقول إن أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس هو الغازي بن قيس الذي سمعه عن مالك - وكان ذلك في أيام عبد الرحمن الداخل (١٣٧هـ / ٧٥٥م - ١٧١هـ / ٧٨٨م) - إذ يقول : « وفي أيام عبد الرحمن ابن معاوية دخل الغازي بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك وبقراءة نافع بن أبي نعيم ، وكان له مكرماً ومتكرراً عليه بالصلة في منزله . وفي أيامه دخل أبو موسى الهواري عالم الأندلس ، وكان قد جمع علم العربية إلى علم الدين ، وكانت رحلتهما إلى المشرق بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس . فحدث الشيخ [عمر] بن لبابة ، قال : « كان أبو موسى الهواري إذا دخل من قريته بفحص موررور - التي كان فيها سكناه - لم يُفْتِ أحدٌ من مشايخ قرطبة ، لا عيسى بن دينار ولا يحي بن يحي ولا سعيد بن حسان رحمهم الله جميعاً ، حتى يرحل عنهم » .

ومن الثابت - على أي حال - أن مذهب مالك قد ثبت في الأندلس وعلا أمره فيه على أيام هشام الرضي (٨٩هـ / ٧٠٨م - ١٧٩هـ / ٧٩٦م) ، بسبب المكانة

الرفيعة التي حظي بها يحي بن يحي الليثي عنده ؛ وكان يحي من تلاميذ مالك المباشرين وكان متعصباً لمذهبه ، وكان هشام يشاوره في أمور القضاة ، فلم يكن يولي إلا المالكيين ، ومن بين من أسسوا دولة المالكية في الأندلس يحي بن يحي وعيسى بن دينار وشبطون .

كبار فقهاء المذهب المالكي في الأندلس : (٦)

من الصعب أن نذكر جميع الأندلسيين الذين ألفوا في الفقه على مذهب مالك ، واعتمدوا على موطئه ووضعوا عليه الشروح والتعليقات لأن ذلك الإحصاء يطول دون جدوى من ورائه في هذا البحث القصير ، ولهذا فسنتناول فقط كبار هؤلاء الفقهاء : (٩)

١ - عبد الملك بن حبيب (١٧٩هـ/٧٩٦م - ٢٣٨هـ/٨٥٣م أو ٨٥٤م) :

وهو من أقطاب المالكية الأندلسيين وأقدم مؤرخي الأندلس الإسلامي ، ويقال أنه ينتسب إلى قبيلة سليم بن منصور ، وقد وُلد في حصن واط ، وعاش في إلبيرة وقرطبة صدر شبابه وفيهما درس ، ثم رحل إلى المشرق وتردد على حلقات الدرس هناك ، وخاصة في المدينة حيث درس الفقه على مذهب مالك بن أنس وأصبح من كبار أنصاره ثم من أكبر العاملين على تحويل أهل الأندلس إلى المالكية بعد أن كانوا أوزاعية .

وقد ألف « الواضحة » التي تعتبر وبحق أحسن كتاب يشرح موطأ مالك ، ولازال مخطوطاً في المكتبة البودلية في أكسفورد بانجلترا ، وعنوانه كما يرد في هذه المخطوطة هو : « كتاب في ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق الله فيها من ابتداء خلق السموات وخلق البحار والجبال والجنة والنار ، وخلق آدم وحواء وما كان من شأنهما مع إبليس ، وعدة الأنبياء نبياً نبياً إلى محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ، وعدة الكتب المنزلة وعدة الخلفاء إلى حين استفتاح الأندلس ، وما وجد فيها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت والزمرد والأمتعة وما أخرج منها ،

وعدة ملوكها ومن وليها ومن يليها وذكر شيء من الحدثان وما يعلم منها في بعض البلدان ، وكم عمر الدنيا وما مضى منها وما بقي إلى أن تقوم الساعة . تأليف الفقيه عبد الملك بن حبيب رضي الله عنه وفيه ذكر القضاة - قضاة قرطبة لابن الحارث » .

وكان عبد الملك بحراً من العلم بالشعر والأنساب والتاريخ والفقه والمعاجم والطب ، وقد أدرك في الأندلس شهرة واسعة ولقبه الناس « بعالم الأندلس » وجعلون صنواً لسحنون بن سعيد إمام المالكيين في المغرب وعالم . ثم جلس للتدريس في مسجد قرطبة ، وكان يقسم طلبته مجموعات لا يُسمعهم إلا كتبه وموطأ مالك . وكان يجل العلم حق إجلاله فقد كان يجلس للإقراء في ملابس غالية بعضها من « الصيدي » وهو حرير ينسج في اليمن ، وكان يرى ذلك توفيراً وإجلالاً للعلم الذي يقرئه ، على أنه قد أوقف أملاكه كلها على مسجد قرطبة قبل وفاته . ونعود لكتابه أو مخطوطته « الواضحة » فنجد أنه يبدأ بالكلام على « أوَّلية خلق الدنيا » ، ويتحدث فيه عن أول ما بدأ الله به خلقه من السموات والبحار والجبال والجنة والنار وآدم وحواء ، ثم يحكي قصة ما جرى بينهما وبين إبليس ، ثم يقص سيرة الأنبياء حتى يصل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتكلم عن الكتب المنزلة ، ثم يذكر سيَر الخلفاء حتى فتح الأندلس ، ثم يحدثنا عما يوجد بالأندلس من الذهب والفضة واللآلئ والياقوت والزمرد وما إلى ذلك من عيون الثروة ، ثم يتحدث عما يستخرج منها ، ثم يقص سيَر مَن حكمها من الملوك ومن غزاها من الفاتحين ، ثم يحدثنا بما يتواتر على ألسنة الناس من الأخبار والأساطير عن كل ناحية من نواحيها . ويتحدث عما قدّر الله في علمه لهذه الدنيا من العمر ، وما مرّ منه وما بقي حتى قيام الساعة . وفي آخر الكتاب فصول عن الفقه وكله مأخوذ عن المذهب المالكي وأيضاً فصول عن الأخلاق والآداب وطائفة من الأشعار ؛ ويختم الكتاب بالكلام عن قضاة الأندلس .

ويبدو أن ابن حبيب نفسه لم يكتب الكتاب ، أو لم يكتب إلا جزءاً منه على أي

حال ، لأن سلسلة أمراء الأندلس المسلمين فيه تصل إلى الأمير عبد الله أي إلى سنة ٢٧٤هـ / ٨٨٨م . وقد توفي ابن حبيب قبل ذلك بخمس وثلاثين سنة ، والظاهر أن الذي كتب الكتاب في صورته الحالية هو ابن أبي الرقاع - وكان تلميذاً لعبد الملك يقيد سماعه - ثم أكمله وأضاف إليه أشياء من عنده .

وعلى الرغم من قدم هذا الكتاب ، فإن قيمته التاريخية ضئيلة ، وروايته لأخبار افتتاح الأندلس تطغي عليها الأساطير ، حتى لتبدو وكأنها قصة من قصص ألف ليلة . وقد درس دوزي هذه الروايات ، وتبين أن ابن حبيب أخذها عن شيوخه من المصريين ؛ وابن حبيب نفسه يؤكد ذلك في أكثر من موضع من كتابه .

٢ - محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي عتبة المتوفي سنة (٢٥٤هـ/٨٦٨) :

وهو تلميذ عبد الملك بن حبيب وكان يُعرف بالعُتبى ، وهو صاحب مجموعة « الأسمعة المسموعة غالباً من مالك بن أنس » المسماة « بالعتبية » أو « المستخرجة » ، وكانت من أكثر الكتب تداولاً بين الأندلسيين وأهل المغرب . [وقد قال في حقه ابن الفرضي : « سمع بالأندلس من يحي ابن يحي وسعيد بن حسان وغيرهما ، ورحل فسمع من سحنون بن سعيد وأصبغ بن الفرج ونظرائهما . وكان حافظاً للمسائل ، جامعاً لها ، عالماً بالنوازل . وهو الذي جمع « المستخرجة » وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة . وكان يؤتي بالمسألة الغريبة فإذا سمعها قال : أدخلوها في المستخرجة .... »] .

٣ - أبو الوليد الباجي (٤٠٢هـ / ١٠١٢م - ٤٧٣هـ / ١٠٨١م) :

هو من أكبر أعلام المالكية في الأندلس شأناً واسمه أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي الاجي ، وأصله من بطليوس وانتقل جده إلى باجة قرب أشبيلية . نشأ الباجي في أسرة معدمة ، وجدّ في طلب العلم وتحمل المشاق ورحل إلى المشرق لكي يتمكن من دراسة الأدب والفقه ، (حتى « أجر نفسه ببغداد لحراسة الدروب » ليكسب ما يعينه على إتمام دراسته) . وعاد إلى الأندلس وجلس للإقرار بسرقسطة وبلنسية وغيرهما ، « وكان لما رجع إلى الأندلس يضرب

ورق الذهب ، ويعقد الوثائق ، إلى أن فشا علمه وتهيأت له الدنيا » . ولم يشق طريقه إلا في عسر ، وكان مشتغلاً بالتأليف في أثناء ذلك كله . وقد علا شأنه بسبب مؤلفاته في الفقه المالكي وأصول الدين واشتغل بكتابة الشروط ، ووليَ قضاء بعض النواحي . ومؤلفاته تكاد تكون كلها في علوم الفقه والقرآن ، وخاصة في أصول الأحكام وشرح الموطأ . وقال عنه ابن حزم « لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم . وصنف أبو الوليد كتباً كثيرة منها « كتاب التسديد إلى معرفة التوحيد » ، و« كتاب سنن المنهاج وترتيب الحجاج » ، و« كتاب إحكام الفصول في أحكام الأصول » ، و« كتاب التعديل والتجريح لمن خَرَّج عنه البخاري في الصحيح » ، و« كتاب شرح الموطأ » وهو نسختان : نسخة سماها « الاستيفاء » ثم انتقى منها فوائد سماها «المنتقى» في سبع مجلدات ، وهو أحسن كتاب ألف في مذهب مالك ، لأنه شرح فيه أحاديث الموطأ وفرَّع عليها تفريعاً حسناً ، وأفرد منه شيئاً سماه « الإيماء » . وقال بعضهم إنه صنف « كتاب المعاني في شرح الموطأ » فجاء عشرين مجلداً عديم النظير . وكان أيضاً قد صنف كتاباً كبيراً جامعاً بلغ فيه الغاية سماه « الاستيفاء » ، وله كتاب « الإيماء في الفقه » خمسة مجلدات ، ومن تصانيفه أيضاً ، كتاب اختلاف الموطآت » ، و« كتاب الإشارة في أصول الفقه » ، و« كتاب سنن الصالحين » ، و«كتاب التفسير » وله كذلك وصية جليلة لولديه يرشدهما فيها إلى طريق العيش الكريم التقي . بيد أن كتبه لم تطر بذكره كما طارت به مساجلاته ومجادلاته مع ابن حزم ، ويبدو أن ما حفزه على الدخول في ذلك الجدل هو رغبته النبيلة في التقريب بين أمراء الطوائف وتوحيد كلمتهم ، بعد أن تلاشى كل أمل في قيام خلافة مرَطبة الأموية مرة ثانية . وكان مما أقحمه في هذه المجادلات أيضاً ما بدا له من تدارك الشر الذي قد ينتج عن اجتهاد ابن حزم في نشر مذهبه الظاهري وكان الفقهاء يعتبرون هذا المذهب بدعة وضلالة .

٤ - أبو الوليد بن رشد (٤٥٠هـ / ١٠٥٨م - ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) :

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد - جد الفيلسوف المعروف - وهو أنبه فقهاء المالكية ذكراً في عصره ، وقد تولى قضاء الجماعة في قرطبة ، [إذ « كان فقيهاً عالماً حافظاً للفقه مقدماً فيه على جميع أهل عصره ، عارفاً بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه ، بصيراً بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم ، نافذاً في علم الفرائض والأصول ، من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم ، مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمت الحسن والهدى الصالح »] ، وكان صاحب الصلاة في مسجد قرطبة الجامع . ومن أشهر مؤلفاته كتابا « المقدمات لأوائل كتب المدونة » . و« البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل » ، وقد بسط فيه الأسس الفقهية لأحكام مذهب مالك في شتى المسائل بحسب ما وردت في « مستخرجة » العتبي . ومن مؤلفاته كذلك « اختصار المبسوطة » و« اختصار شكل الآثار للطحاوي » .

٥ - يحي بن ابراهيم بن مزين القرطبي المتوفي سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م :

وله مؤلفات كثيرة في شرح الموطأ ، من أهل قرطبة ، وأصله من طليطلة ؛ يُكنى أبا زكريا ، روى عن عيسى بن دينار ويحي بن يحي ونظرائهما ، ورحل إلى المشرق في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم [الأوسط] رحمه الله ، فلقي بالمدينة مطرف بن عبد الله صاحب مالك بن أنس ، روى عنه الموطأ ورواه أيضاً عن حبيب كاتب مالك ؛ وكان حافظاً للموطأ فقيهاً فيه ، وكان مشاوراً مع العتبي وابن خالد ونظرائهما ، وله حظ من علم العربية ، وألف كتباً حساناً منها « كتاب تفسير الموطأ » ، و« كتاب تسمية الرجال المذكورين في الموطأ » و« كتاب المستقصية » ، و« كتاب في فضائل العلم » و« كتاب في فضائل القرآن » ؛ ولم يكن عنده علم بالحديث .

٦ - قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطاء البياني المحدث :

وكان فقيهاً نابهاً ، صنف في السنن كتاباً حسناً ، وفي أحكام القرآن وله

« كتاب في غرائب حديث مالك بن أنس فيما ليس في الموطأ » ومات في قرطبة سنة ٣٢٠هـ .

٧ - آخرون :

ومنهم ابن أبي دليم ، عبد الله ، وكان نبيلاً في الحديث ضابطاً لما روى ، وقد صنف « كتاب الطبقات فيمن روى عن مالك وأتباعهم من أهل الأمصار » وتوفي سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢م .

ومنهم يحي بن عبد الله بن يحي بن يحي الليثي المتوفي سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م وكان حفيداً ليحي الليثي وروى عن عبيد الله بن يحي « الموطأ » وغيره ، وقال عنه ابن الفرضي أن مجلسه كان أكثر المجالس بشراً في قرطبة وأنه لم يسمع منه غير الموطأ والتفسير .

ومنهم ابن القوطية وكذلك ابن أبي زمنين وكان له « المشتمل في الشروط » على مذهب مالك بن أنس واختصر « مدوّنة » سحنون ، وكان من الورعين البكائين الخاشعين . سكن بقرطبة ثم انتقل إلى البيرة حيث توفي سنة ٣٩٨هـ .

ومنهم كذلك قاضي إشبيلية وأكبر أصحاب الوثائق بها محمد بن يحي بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن داود التميمي المعروف بابن الحذا (٣٤٦هـ / ٩٥٨م - ٤١٥هـ / ١٠٢٥) ، وكان تلميذاً لابن القوطية . ومن تأليفه « كتاب التعريف بمن ذكر في موطأ مالك بن أنس من الرجال والنساء » وغيره من الكتب مثل « كتاب الإنباه عن أسماء الله » الذي دُفن معه طبقاً لوصيته .

ومنهم كذلك ابن عفيف ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عفيف بن مريول بن حاتم بن عبد الله الأموي (٣٤٨هـ / ٩٥٩م - ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م) وقد عني بالفقه وعقد الشروط والوثائق .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عتّاب بن محسن (٣٨٣هـ / ٩٩٣م - ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) وكان فقيهاً عالماً عاملاً ورعاً عاقلاً بصيراً بالحديث وطرقه ، وعالماً بالوثائق وعللها مدققاً لمعانيها ل يجاري فيها . وكان متواضعاً عفيفاً زاهداً يهاب الفتوى

ويخاف عاقبتها في الآخرة . وكان من بين النابهين من فقهاء المالكية ابن الطلاع (٤٠٤هـ / ١٠١٣م - ٤٩٧هـ / ١١٠٣م) واسمه محمد بن فرج مولى محمد بن يحي البكري وكان فقيهاً عالماً حافظاً للفقه على مذهب مالك وأصحابه ، قوّالاً للحق وإن أوذي فيه .

ومنهم ابن المُقري ، علي بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن الضحاك ، أبو الحسن الغزاري الغرناطي ، ويعرف بابن البصري (والمقري أيضاً) وتوفي سنة ٥٥٢هـ / أو ٥٥٧هـ / ١١٦١م ، وكان أستاذاً نابهاً في علوم الفقه ، وله مؤلفات كثيرة أهمها كتاب « مدارك الحقائق » في أصول الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس . ومنهم المحدث الفقيه ابن الخرّاط (٥١٠هـ/١١١٦م - ٥٨١هـ/١١٨٥م) [عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد الأزدي الإشبيلي] وكان فقيهاً حافظاً عالماً بالحديث وعلله ، وزاهداً ورعاً لازماً للسنة ومتقللاً من الدنيا وله مؤلفات عديدة قيمة .

ومنهم محمد بن أحمد بن حرب المتوفي سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م ، وكان معنياً بأصول الدين والفقه علاوة على تحققه بالعربية والأدب ، وله مؤلفات عديدة أهمها « كتاب الفوائد الفقهية في مذاهب المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية » في ثلاثة مجلدات .

وفي الفترة الأخيرة من تاريخ المسلمين في الأندلس نجد ابن عاصم ، أبا بكر محمد بن محمد (٧٣٠هـ / ١٣٥٨م - ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م) ، وقد ألف عشرة كتب لم يبق منها غير اثنتين .

** على أن هؤلاء الفقهاء لا يستوون جميعاً من حيث مدى اجتهادهم والمقاييس التي التزموها فقد كان المذهب المالكي أساساً مذهباً يقوم على الحديث ، لأن مالكاً جعل الأحاديث النبوية مقدمة على رأي الفقهاء ، ولكن الفقهاء لم يلتزموا ذلك بل انصرفوا عن دراسة الحديث واقتصروا على الرجوع إلى كتب الفروع والخلاف التي أقرها شيوخ المذهب وكانوا يتدارسون الملخصات المبسطة التي ألفها كبار شيوخ

المالكية وعرضوا فيها المسائل العادية التي قد يتعرض لها القضاة كل يوم وذلك بأسلوب عملي واضح وبينوا حكم المذهب فيها ، ووصلوا حتى حد الانصراف عن دراسة القرآن والحديث انصرافاً يكاد يكون تاماً ، وأعرضوا عن النظر إلى غير المالكية من المذاهب وعن النظر في ذلك العلم المنطقي الذي يسمى « علم أصول الفقه » وهو ما كان يمكن أن يمكنهم من أن يستخرجوا من الأصول أحكاماً مناسبة لما يعرض لهم من شتى المسائل .

عوامل انتشار المذهب المالكي في الأندلس (٨)

البيئة الفكرية التاريخية لأهل الأندلس والتي ساعدت على دخول المذهب المالكي وانتشاره :

لم يكن دخول الإسلام إلى بلاد الأندلس عام ٩٢هـ وتركيزه على قواعد متينة وثابتة بالأمر الميسور في باديء الأمر ، ذلك أن دار الخلافة بالمشرق ، لم تستطع أن توفي بما يكفي من العناية لإقامة بناء الإسلام على الوجه المرضي ، بل كانت تكتفي بإرسال النجدات بحسب الإمكان ، كلما ساءت الأمور وتأزمت الحالة ، وما أكثر الأزمات التي كانت تطرأ ، والتي تعود أسبابها إلى حالة السكان النفسية أولاً ، وإلى قلة العون والمدد ثانياً ، ثم إلى اللاجئين ممن بنا بهم المشرق لمذهبهم السياسي أو لضلالهم العقائدي من أرباب النحل والملل ثالثاً .

أما العامل الأول وهو الحالة النفسية للسكان فيرجع ذلك إلى المتناقضات التي عاشها هؤلاء السكان وجعلتهم لا يتبينون حقائق الأشياء ، ولا تطمئن نفوسهم ، ذلك أن الأمور لم تجر عندهم على نسق واحد منذ بداية الفتح ، الذي كان على يد نخبة طيبة من الصحابة الذين بهروهم بأخلاقهم وحسن معاملتهم ، ثم أصبحوا يلمسون فيمن تصدوا لتعليمهم وتثقيفهم ، مطامع وميولاً شككتهم ف المثل والقيم مما زعزع الحالة النفسية لهم .

أما العامل الثاني ، وهو قلة العون والمدد ، فمعناه أن مركز السطلة في الشرق ، لم يوفر ما يكفي من الرجال ومن المؤسسات لتعليم السكان وتثقيفهم وتوعيتهم ، بما تقتضيه أصول الجامعة الإسلامية ، ويبدو أن سبب ذلك هو انشغال

عواصم الخلافة بمشاكلها المتتابعة مما حال دون التفاتها التفاتاً مستمراً نحو هذه الرقعة من العالم الإسلامي بالصورة التي يحتمها الواجب والمنطق .

أما العامل الثالث ، المتمثل في وفود جماعات وأفراد من الفارين من نقمة السلطة بالمشرق ، للاحتماء والاختفاء في ربوع هذا المغرب فإنه أقوى هذه العوامل في التعكير والإفساد ، فقد تكونت جموع هؤلاء اللاجئين من عناصر ثلاث على الأقل : فمنهم المعادون سياسياً - وإن سلمت عقائدهم - للسلطة الأموية والعباسية فيما بعد ، فراحوا يبحثون عن أنصار لهم ، وأخذوا يلقنونهم روح التمرد والثورة ، ومنهم الشيعي ومنهم الخارجي ، وكلاهما اغراه بعد الشقة وقصر يد الخلافة عن الوصول إليه ، فجاء ينشر عقيدته ويستغل العزلة الفكرية للقبائل التي تقطن هذه المناطق فتقنع بقناع جذاب ، وأغراهم بالجاه والسلطان ، فاعتنقوا مذهبه وتجندوا للثورة كيفما كانت الثورة . وهكذا نجد أن ثورات هؤلاء الخوارج والشيعة ، قد تمادت إلى نهاية القرن الرابع أو بعد ذلك بقليل ، أعني سنة ٤٣٥هـ .

ونجد في بلاد الأندلس ، أنه منذ عودة يحي بن يحي الليثي من المدينة المنورة ، بعد وفاة مالك بن أنس ، أنه تقلد الرئاسة الدينية في الأندلس ، وخاصة بعد وفاة عيسى بن دينار ، وكان ذلك على عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، الذي كان يوقر يحي ويبجله تبجيل الأب ، ولا يرجع عن قوله ويستشيره في جميع أموره ، وفيمن يوليه ويعزله . ولم يقبل خطة القضاء رغم الإلحاح عليه من العامة بإيعاز من الأمير ، وقد توصل إلى إقناعهم بأنهم إذا تظلموا من قاضي ، أجلسوه لينظر لهم في أحكامه . وعندما يصير قاضياً فيتظلمون منه ، فمن يقصدون لينظر لهم في أحكامه ؟ وعدنما اقتنعوا بسداد رأيه وخلوا سبيله . فباستعمال وجاهته وبحصافة رأيه ، استطاع يحي بن يحي الليثي أن ينشر المذهب المالكي ويجعله يطغي على مذهب الأوزاعي ، الذي كان مذهب أهل الأندلس قبل المذهب المالكي ، وهكذا على يد ثالوث من أصحاب مالك في الأندلس استقام الأمر لهذا المذهب ، ولم تعد المذاهب الأخرى تقوى على مزاحمته . وهذا الثالوث يتركب من زياد بن عبد الرحمن

(شبطون) ، ومن عيسى بن دينار القاضي المتوفي سنة ٢١٢هـ . ومن يحي بن يحي الليثي الذي لقبه مالك بعاقل الأندلس .

عوامل انتشار المذهب المالكي في الأندلس :

بعد هذه اللمحة التاريخية الموجزة عن البيئة الفكرية التاريخية لأهل الأندلس قبيل دخول المذهب المالكي وهي التي مهدت السبيل لانتشار هذا المذهب في هذه البقاع النائية ، نستطيع أن نقول بأن المذهب المالكي قد تعددت العوامل التي جعلته ينتشر في الأندلس ، ويمكننا حصر أبرز هذه العوامل بما يلي :

أولاً : صدور هذا المذهب عن مدينة الرسول ، وعن مسجد الرسول بالذات ، ثم امتداد عروقه إلى الصحابة والتابعين ، بما فيهم أزواج الرسول وآل بيت الرسول ، كل ذلك يضفي على هذا المذهب طابع السلفية والجدّية ، بما يجعل هؤلاء المغاربة النائية عن الحرمين ، يفضلون هذا الدين من منبع الإسلام ، على أي مذهب آخر من أي مصر من الأمصار كان ماتاه ، فمادام هذا المذهب ديناً فأي مكان غير المدينة وغير الحرمين يمكن أن يؤخذ عنه ؟ .

ثانياً : طبيعة هذا المذهب الذي اعتمد النقل كما اعتمد العقل ، ولكن في حدود الاعتدال ، تدعو إلى الاعتداء به أكثر ، لأن الدين دين الله هو الذي شرّع ، ودين رسوله الذي بلغ وبيّن . فهلا وقفنا عند هذا الحد ولم نتجاوزه إلا بمقدار الحاجة وعند الاقتضاء ، وتلك هي طبيعة هذا المذهب ، التي تتماشى مع طبيعة أهل الأندلس وهم منذ سالف الأحقاب أهل سلفية وأهل جد .

ثالثاً : وفرة الوافدين على المدينة من أهل الأندلس ، جعلت الاتصال بالمدينة أيسر من الاتصال بأي بلد آخر من بلاد المشرق ، وقد تكونت جالية مغربية تعيش في المدينة باستمرار وحتى الآن ، وعندها وهند أهل المدينة الأسخياء يجد طلاب العلم العون والتشجيع والانس ، أضف إلى ذلك أن الإقامة بالمدينة ولو لمدة سنين لا تجعل الطالب منقطعاً عن أهل بلده طول تلك المدة ، بيد أن

مواسم الحج في كل سنة تجعلها على اتصال مستمر بكل العالم الإسلامي فالرحلة العلمية إلى المدينة هي رحلة علم وعبادة ، ومما زاد طلاب هذا المذهب إجلالاً في أعين أهل الأندلس ، فأقبلوا عليهم وانتفعوا بعلمهم ، أنهم يعودون إلى بلادهم مكللين بشرفين ، شرف العلماء ، وشرف العبّاد ، وهكذا يقترن العلم بالعبادة فيصبح التلازم بينهما وثيقاً ، ولا يمكن أن يحصل ذلك إلا برحلة إلى المدينة للاغتراف من مذهب إمامها مالك بن أنس .

رابعاً : امتزاج هذا المذهب بعقلية المغاربة وهي أقرب ما يكون بعقلية الزندلسيين وهي الأكثر تأثيراً عليهم ، فقد أصبح هذا المذهب جزءاً من القومية الافريقية والمغربية بصورة عامة ، حيث اقترن المذهب المالكي عند أهل المغرب بجملة من المعاني ، منها أنه هو الدين وهو الإسلام دون سواه ، ولهذا اعتبروا - وخاصة العامة منهم - أن من تخلى عنه فكأنما تخلى عن الإسلام . ومنها أنه مذهب الأمة بطبقاتها الشعبية ، في حين أن المذهب الحنفي مثلاً هو مذهب الحاكمين ، وعلى ذلك كان الأمر منذ عهد الأغالبة إلى عهد البايانا ، باستثناء بعض الدول مثل الصفهاجية والحفصية والموحدية إلخ ... ومنها أن المالكية هي التي انتصرت على مر تاريخ بلاد المغرب على المذاهب الضالة وعلى النزاعات الملحدة التي وفدت من المشرق وبذرت بذورها بهذه التربة ، فالمالكية هي المغرب وكأنها خلقت له وخلق لها . وهذا الكلام أثر تأثيراً إيجابياً على الأندلسيين حتى يمكننا القول أيضاً بأن المالكية لم تخلق لأحدٍ غيرهم بل صارت هي دينهم وتعدت حدود المذهب الفقهي عندهم .

خامساً : ضمانات الاستقرار للمذهب المالكي دون سواه ، لأنه دخل إلى الأندلس من أبواب كثيرة إذ كل طالب من طلاب مالك ، هو باب منه دخل هذا المذهب واستقر بالزندلس ، وهؤلاء الطلاب هم أفارقة وأندلسيون ، ابتداء من علي بن زياد وعيسى ابن دينار ويحي بن يحي الليثي بالأندلس . في حين أن

المذاهب الأخرى لم تدخل إلا من باب واحد كما هو الحال بالنسبة للمذهب الحنفي ، أو دخلت من غير باب أصلاً وهذا بالنسبة لمذهب الخوارج ومذهب الشيعة ، اللذين وردا عن طريق الهاربين من قبضة السلطات من المشارقة في أغلب الأحوال .

سادساً : من عوامل الاستقرار والانتشار لهذا المذهب بالأندلس ، قيام جهابذة الأئمة على نشره وتأصيله ، مما جعل حماس السكان يتزايد ، والتمسك به يقوى ، ونذكر من هؤلاء الأئمة الذين رفعوا لواءه على مر القرون : عيسى بن دينار المتوفي سنة ٦١٢هـ ويحي بن يحي الليثي المتوفي سنة ٢٣٤هـ وهما اللذان ركزا هذا المذهب ، وبذا أزكى الجهود في نشره ، وبعهما يسند اللواء في القرن الربع ، لمحمد بن عبد الله ابن أبي زمنين المتوفي سنة ٣٩٩هـ ثم في القرن الخامس يكون الدور للإمامين : يوسف بن عبد البر المتوفي سنة ٤٦٣هـ وأبي الوليد الباجي المتوفي سنة ٤٧٤هـ ومنهما إلى الإمام ابن رشد صاحب البيان والتحصيل وصاحب المقدمات المتوفي سنة ٥٢٠هـ ومنه مباشرة إلى القاضي أبي بكر بن العربي ، صاحب الغيرة على هذا المذهب المتوفي سنة ٥٤٣هـ ، ثم إلى معاصر ابن رشد وابن عبد السلام الهواري : محمد بن أحمد بن جزي المتوفي سنة ٧٤١هـ صاحب القوانين الفقهية وصاحب تقريب الوصول ، وبعده تكون الراية لمعاصر ابن عرفه الإمام أبو اسحق الشاطبي المتوفي سنة ٧٩٠هـ صاحب الشهرة الرائجة والتآليف المفيدة وناهيك بكتابيه : الموافقات والاعتصام .

هذه باختصار هي أهم العوامل التي مهدت لدخول المذهب المالكي إلى بلاد الزندلس ثم استعرضنا العوامل التي ساعدت على انتشار هذا المذهب دون سواه في بلاد الأندلسيين .

الخاتمـــة

وهكذا وبحمد الله وتوفيقه استطعت أن أنهي هذا البحث المتواضع والتي نستطيع أن نخرج منه بالنتائج التالية :

١) أن المسلمين قد أقاموا حضارتهم ووسعوا دولتهم عندما تمسكوا بعقيدتهم الصحيحة دون تشويش أو تضليل .

٢) أن أزهى عصور التقدم والحضارة تأتي عندما يتناغم الحكم السياسي السديد مع إخلاص العامة من الناس وقوة إيمانهم .

٣) أن التدهور ينشأ عندما لا يلتفت الراعي إلى رعيته وعندما لا يهتم بتثقيفهم وتوعيتهم وتنويرهم وتوضيح العقيدة الصحيحة لهم والكشف عما قد يندس بينهم من تضليل واغواء .

٤) ينشأ التدهور أيضاً عندما يبتعد الناس عن الأصول ويتمسكون بالفروع دون أن يحاولوا إعمال فكرهم واجتهادهم والوصول إلى الفهم الصحيح للكتاب والسنة والدين الحنيف .

وأود أن أشير إلى ما اعتصر قلبي من ألم وحسرة على ضياع الأندلس الحبيب وأدعو الله أن تنقشع الغمة وألا يتكرر ذلك أبداً وأن نكتشف طريقنا الصحيح نحو استرداد بيت المقدس وكافة بلاد المسلمين بالعلم والفكر المستنير والإيمان القوي الرصين .

والله ولي التوفيق .

المصادر والمراجع

١ - د . الحجي ، عبد الرحمن علي ، أندلسيات .

٢ - د . مؤنس ، حسين ، فجر الأندلس .

٣ - محمود ، حسن أحمد ، قيام دولة المرابطين .

٤ - حتامة ، محمد عبده ، المسلمون في الأندلس .

٥ - مؤنس ، د . حسين ، تاريخ الفكر الأندلسي .

٦ - أحمد ، بدر ، التاريخ الإسلامي .

٧ - موراشي ، ميكلوشي (مترجم) ، دراسات في مصادر الفقه المالكي .

٨ - سلامة ، الطيب ، ملتقى الامام محمد بن عرفه .

٩ - ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس .

الفهرس